العـــدد A8 لسنة 2023
No. 8A – March 2023
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - - Electronic ISSN 2790-1254

الهوية ومجتمع الاحتراق النفسي ـ دراسة تحليلية في مجموعة (الخوافي) للشاعر جراح كريم

الباحث: حسين عبد الجليل عايش
المديرية العامة لتربية ذي قار

الملخص

حاولنا في هذا البحث اكتشاف مجتمع الاحتراق النفسي وأنماط الهوية التي تعيش فيه، وتأثير الأنساق الثقافية عليها وعمليات الهدر والقهر التي يمارسها الآخر تجاه الفرد ويركنه في خانة الاحتراق النفسي ، وكذلك حاولنا التعرف على الحيل النفسية أو الميكانيزمات الدفاعية التي تتبعها الهوية مثل حيلة الإسقاط والتقمص في محاولة منها للنجاة من عمليات الاحتراق النفسي، كل هذا عبر عمليات التحليل والتفكيك لمجموعة الخوافي للشاعر جراح كريم، الفائزة في جائزة الشاعر محمد القيسي للشعر ـ الدورة الأولى، التي أقامتها دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع.

كلمات مفتاحية : الهوية ، الاحتراق النفسي ، الخوافي ، جراح كريم

Identity And Psychological Combustion Society - An Analytical Study In The Collection (Al-Khawafi) By The Poet Jarrah Karim

Researcher: Hussein Abdul Jalil Ayesh
Directorate General of Dhi Qar Education

Summary

In this research, we tried to discover the psychological combustion society and the patterns of identity that live in it, and the impact of cultural patterns on it, and the processes of waste and oppression that the other practices towards the individual and places him in the category of psychological combustion. In order to escape from the processes of psychological combustion, all of this is done through the processes of analysis and disassembly of the Al-Khawafi group of the poet Jarrah Karim, winner of the poet Muhammad Al-Qaisi Prize for Poetry - the first session, which was set up by Dar Lines and Shadows for publication and distribution.

Keywords: identity, burnout, fears, Jarrah Karim

التمهيد: الهوية ومجتمع الاحتراق النفسي

ذهب علماء النفس إلى أنَّ الإطار الأول الذي تتشكَّلُ فيه هوية الفرد هو الإطار الجماعي؛ إذ إنَّ الصيغة الوجودية الأولى للطفل تكون ضمن علاقة التماهي مع أمِّه التي تشكِّل بيئة كلية ومناخاً انفعالياً لوليدها وهذا ما يؤدي إلى إمكانية القول إن الوعي الأول للإنسان يتمثل في خاصية الشعور المشترك الذي يأخذ ضمير المتكلم (نحن) وإنَّ هذه التجربة تقوم بالأساس بين شخصين، لا يمكن الفصل بينهما، فالحقيقة التي يعيش تحت ظلها الطفل هي نوع من المشاركة الأولية والتفاعل العاطفي، والتلاحم السلوكي والفكري بين كائن وآخر ـ متمثلاً بالأمِّ ـ يتيح له الشعور بالرضا والإشباع أو الحاجة والقلق والخوف، وهذا ما يؤكده (دور كهايم) في إشارته إلى وجود كائنين داخلنا أحدهما اجتماعي والآخر فردي، وإن الكائن الاجتماعي يمثل الأنظمة التي تتكون من الأفكار والمشاعر والعادات التي تعبر عن الجماعة أو الجماعات التي ننتمي لها، وتأخذ هذه الأنظمة صيغة العقائد الدينية والأطر الأخلاقية والتقاليد القومية والآراء الجمعية، إن الكائن الاجتماعي يشكل عنصراً بنائياً لنواة الهوية الثقافية والجماعية[1] .

إن الأفراد يصنعون هوياتهم الفردية والجمعية عن طريق وعيهم وأحاسيسهم الشعورية وأفكارهم وانتماءاتهم ومقاصدهم التي تتبلور وتأخذ أشكالها الموضوعية المختلفة فتحدد سلوكياتهم ومشاعرهم[2]، وذلك لحاجتهم الضرورية للجماعة ، إذ يتحدد وجود الإنسان ومكانته الإنسانية بانتمائه الجمعي ، ويتبين هذا في ظواهر التضامن الإنساني التي تؤكد تماهي الهوية الفردية في إطار الهوية الجمعية ، كما في اللحظات المأساوية التي تمرّ بها الجماعة مثل : الحروب التي يتم فيها تحشيد النزعة الفردية لصالح الأنا

الجمعية ، وذلك عبر ارتباط المشاعر والأحاسيس بالجماعة ، فالخوف هو خوف الجماعة والتضحية هي من أجل الجماعة ، فإنَّ موت أحد افراد الجماعة يملي على كل شخص إحساس الألم وكأنَّ ما حدث مصاب شخصي ، وقد يوقظ ذلك رغبة الانتقام عند جميع أفراد الجماعة[3] .

إذن تمثل الهوية الجمعية صوت الأنا ورمزها وعاملها المشترك الذي يجمع عليه الأفراد من حيث التعلق والانتماء والاعتزاز والولاء ، والمساس بها يعني مساس الذات الجماعية كلها[4]، ولكل جماعة وعيها الثقافي وذهنيتها الفكرية وتصوراتها الخاصة التي تتأسس على ركائز من النماذج الجاهزة والموروثة والتقليدية ، وإنّ هذه الأخيرة تتغذى من خبرات قديمة ومتراكمة ومن الذاكرة والثقافة الشفوية المتناقلة ، ومن الروايات التاريخية والسياسية ، وتؤدي المصالح الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية وظيفة محورية وفاعلة بصيغتها ؛ كي لا تكون هناك ثغرة يمكن من خلالها اختراق المكون الجماعي ، مما يؤدي هذا إلى انغلاق الهوية الجمعية على نفسها ، وبمقدار هذا الانغلاق ترتفع درجة النرجسية ، وبارتفاع النرجسية ، تتضخم قيمة الجماعة حتى تصبح القيمة المطلقة أو الوحيدة ، يأخذ هذا الأمر نوعاً من الشعور بالاعتزاز والامتلاء[5] ، وهو ما يجعلها محكومة بالثقافة التي تتبعها وتنظم من خلالها أفرادها إذ ((تترك الثقافة بصمتها على الفرد ، وغالباً ما تكون هذه البصمات راسخة ، وتؤثر منذ الطفولة الأولى في الوسائل الفردية في المعرفة والتصرف ، وتتعمق بفعل التربية العائلية ثم المدرسية . والبصمات تُثبِّت المحظور ، والممنوع والمقدس والملعون ، وتزرع المعتقدات ، والأفكار ، والمذاهب التي تحظى بالقوة الضرورية للحقيقة أو للبديهية وتؤصل البصمات داخل الأذهان نماذجها ، والمبادئ الأولية التي تتحكم بالبنى والنماذج التوضيحية واستخدام المنطق، وتنظم النظريات والأفكار والخطابات ، ويرافق البصمات تطبيع يُسكت كل شك بالمعايير، والحقائق والممنوعات أو أي اعتراض عليها))[6]، وهذا ما يحصن الهوية الجماعية ويمدها بالقوة، وأي محاولة للخروج عن أطرها فإنَّ الفرد يجابه بالطرد والنبذ بعيداً عن مظلتها واستراتيجياتها وسياساتها، ممّا يجعل منا كائنات مسكونة ((بالحياة ، وبالنوع، وبأجدادنا وبالثقافة، والمجتمع والأفكار ، نحن نخضع للبصمات، والأنموذج، والقانون، نحن آلات غالباً ماتبدو مبتذلة ، ونحن أيضاً آلات تكبت، وتنسى، وتخفي، وتتوهم، وتخلق الأساطير، وتخطيء، وقبل كل شيء، بحق نفسها))[7] وعندما لا يشعر الفرد بوساطة الهوية الجماعية تحقيقاً ذاتياً واستقراراً نفسياً بعيداً عن القلق والاضطراب النفسي وتأزماته ، فإنَّه يصاب بما يسمى (أزمة الهوية)، يشعر بأنَّه فاقد لهويته الذاتية وقيمته الإنسانية ، وإنَّ الهوية الجماعية بعيدة عنه كونها تتبع سياسات واستراتيجيات لا تحقق هويته الفردية ولا تمثل صوته الداخلي ، مما يجعله ينقلب ـ رافضاً أو متمرداً ـ عليها أو يخرج عن دائرتها منتمياً لهوية جماعية أخرى يحقق عن طريقها هويته الفردية .

وهذه تأزمات الهوية تتكون بسبب عمليات الإقصاء والتهميش والنفي والاستلاب والهدر والقهر والازدراء وغيرها من العمليات التي يمارسها المجتمع تجاه الفرد وهذه تصير بدورها ضاغطاً خارجياً على الإنسان ممَّا يؤدي به إلى الانعزال والنكوص على نفسه ودخوله بحالات من الاغتراب والاكتئاب والوحدة وغيرها من الاضطرابات النفسية وهذا ما يخلق لنا مجتمعاً محترقاً نفسياً إذ إنَّ الاحتراق النفسي كما يعرفه (هربرت فرد نبرجر) ((بأنه حالة من الإعياء والضعف تصيب الجسد وتستنفد طاقته الحيوية نتيجة المتطلبات التي تفوق قدرة الفرد))[8]، إمَّا ((اصحاب النظرية الوجودية يركزون في تفسيرهم للإحتراق النفسي على وجود المعنى في حياة الفرد ، فحينما يفقد الفرد المعنى والمغزى من حياته فإنَّه يعاني من نوع من الفراغ الوجودي الذي يجعله يشعر بعدم أهمية حياته ، ويحرمه من التقدير الذي يشجعه على مواصلة حياته فلا يحقق أهدافه ممَّا يعرضه للإحتراق النفسي ، لذلك فالعلاقة بين الإحتراق النفسي وعدم الإحساس بالمعنى علاقة تبادلية ، فهما وجهان لعملة واحدة ...))[9] . وذلك لأنَّ ((المجتمع التعسفي ولا سيما الشمولي لا يعمل على اضطهاد الأفراد بمنع الحريات فحسب ، فثمة عبودية مسلم بها ضمن العبودية التي يخضع لها ... بل هناك تخوف من الحرية باعتبار أن هذه الأخيرة تعني المجازفة ، وعدم التيقن والمسؤولية ، لا شك أيضاً أن نسبة عالية من البصمات على الطفولة تقود إلى صبيانية اجتماعية))[10] ، وقد ((بدأ الاكتئاب في التصاعد عندما أنتهك النموذج الارشادي التأديبي للسلوكيات وقواعد السلطة ومراعاة المحظورات التي قدمت للطبقات الاجتماعية وكلا الجنسين نصيباً محدداً ، إضافة إلى مخالفة المعايير التي دعتنا إلى القيام بمبادرات شخصية من أجل التقدم على الآخرين عن طريق

إلزامنا بأن نكون انفسنا ... إلا أن الشخص المكتئب يفقد القدرة على التقدم ؛ لقد أصابه السأم من أن يصبح نفسه))[11] وهذا ما يجعل الفرد يعمل جاهداً وبصورة مستمرة في خدمة الأنساق الثقافية في محاولة منه للهروب من عمليات الطرد والنبذ الجماعي حتى أنه يكبت أحياناً ما يتعرض له من عمليات القمع وعدم الاعتراف بقيمته والاقصاء وسياسات الطرد ويبقى عاملاً من أجل ارضاء الجماعة إلى أن يصاب بالانكسار الذاتي العميق ويدخل في حالة من الاكتئاب والتبلد العاطفي والشعوري والعزلة وغيرها من الاضطرابات النفسية التي يشتمل عليها الاحتراق النفسي ويمكن تحديد مفهومه بأنَّه ((عبارة عن الارهاق واستنفاد القوة والنشاط لدى الفرد ، وهو حالة من الإنهاك تحدث كنتيجة للأعباء والمتطلبات الزائدة المستمرة الملقاة على عاتق الأفراد بما يفوق طاقاتهم وقدراتهم ، ويمكن التعرف على هذه الحالة عبر مجموعة الأعراض النفسية والجسدية التي تصيب الأفراد بدرجة تختلف من فرد إلى آخر))[12] .

إلّا أن الإنسان مهما وصل به التماهي بالهوية الجماعية وروح الإنتماء يبقى نزوعه الطبيعي نحو تحقيق الذات هو الدافع والمرتكز الأساسي لإنتمائه وتماهيه وسعيه للدخول في الأطار الجماعي ، إذ ((يتعذر اختزال الفرد وأي محاولة لتذويبه في النوع والمجتمع محاولة شاذة ، فالكائن البشري يحظى بسمات ذهنية ، بل يحظى بتفوق على النوع وعلى المجتمع لأنَّه هو وحده الذي يمتلك الوعي وكمال الذاتية))[13] ، ويُعرَّف الاحتراق النفسي أيضاً بـ ((أنه ظاهرة إستنزاف جسمي وإنفعالي بشكل كامل بسبب الضغط النفسي الزائد عن الحد ، وينتج عنه عدم توازن بين المتطلبات والقدرات ، بحيث يشعر الفرد بأنه غير قادر على التعامل مع أي ضغط نفسي إضافي في الوقت الراهن))[14] ، وهذا ما يدفعه دائما للعمل المستمر والاجتهاد للدخول في الاطار الجماعي ؛ ذلك لأن الشعور بالهوية الفردية وتكوينها يستند إلى الكلية والتماسك والانسجام بين الخصائص والسلوكيات داخل الفرد أولاً ، وبين الفرد ككيان والمحيط الاجتماعي ثانياً ، هذا يعني أن الفرد ينتمي لمحيط اجتماعي منسوج في علاقات إنسانية ، لا يمكنه التعرف على ذاته إلّا عن طريق رسم حدود واضحة بين (الأنا) و (الأنت) بين الذات والمحيط ، ومن دون المعلومات التي يمده بها المحيط الخارجي لا يمكنه التعرف على هويته ، ومن دون التأثيرات الفاعلة التي يتركها الفرد في المحيط الخارجي لا يمكنه الإحساس بهويته الفردية[15] . وعندما لا يستطيع الإنسجام مع الجماعة على الرغم من محاولاته المستمرة فأنه يصاب بالاحتراق النفسي الذي يعني به((حالة عقلية وخبرات نفسية داخلية تعبر عن إنهاك عاطفي وتبلد الشعور وعدم القدرة على تحقيق الذات))[16] ، هذا ما جعل بعضهم يذهب إلى أنَّ (الأنا) تسهم في تشكيل هويتها على نحو حر وغير مقيد ، إلّا أن عدد الأنوات القادرة على فعل ذلك لا يذكر بالقياس مع الأنوات التي تجد نفسها أسيرة وعي متكون تأريخياً ومحيط اجتماعي متمسك بأنساق ثقافية مغلقة ، تبقى الهوية حبيسة هذا الوعي والإنغلاق وهو الذي يحدد علاقتها بالآخر ولا يمكنها الإفلات من أطره المغلقة وأسريته[17] .

المبحث الأول / الهوية المهدورة والمقهورة

الأزمات والإنكسارات القيمية التي تتعرض لها الهوية بكلّ تصنيفاتها ومستوياتها جاءت جراء استراتيجيات الأنساق الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية وسياساتها الاستبدادية المهيمنة على الأوساط الاجتماعية بكل فئاتها وتفرعاتها ، إذ زجت الهوية بحالة من الهدر والقهرية ؛ كون الهدر يحقق ما ترنو إليه تلك الأنساق من استباحة الهوية وانعزالها ونكوصيتها على ذاتها ؛ لأنه تنكر لإنسانية الإنسان وعدم الاعتراف بقيمة هويته وحصانتها وكيانها وحقوقها ، يتمخض بكل القضايا الإنسانية ربما يأخذ شكل عدم الاعتراف بالطاقات والكفاءات ، أو هدر الحرية في تقرير المصير وحرية الفكر والوعي بالذات والوجود ، وهذا يفتح الباب أمام مختلف ألوان التحقير والتسخير والتلاعب والاستخدام من قبل الانساق المهيمنة والسلطوية ، مما يولد مآزق وجودية كبرى ؛ إذ إنّ الإنسان لا يحتمل جحيمها أو جحيم أن لا يكون ، إن الوجود الإنساني محكوم بالقيمة واعتراف الآخر ، كون الآخر مرآتنا التي نرى عن طريقها قيمتنا الذاتية[18] ، عندما لا يرانا الآخر أو يحاول طمس صورتنا أو هويتنا فهو يهدر وجودنا .

الهدر من القضايا التي تظلّ خفية ، إلّا أنها تعاش على مستوى الوجود اليومي بكل مرارته وخيباته وإحباطاته ، والقاسم المشترك بين ألوان الهدر المختلفة هو فشل مشروع تحقيق الذات وصناعة الهوية والكيان الوجودي ، وبما أن طرق تحقيق الذات متنوعة فإنّ الفشل في تحقيق الذات متنوع هو الآخر ،

فهناك الهدر الزوجي ، وهدر الرغبة ، وهدر المكانة والدور ، وهدر نوعية الحياة ، يجد الإنسان ذاته في كل هذه الحالات خارج تحقيق الذات ، ممَّا يؤدي إلى انطوائه على ذاته ، محترقاً نفسياً في واقعه الداخلي ، وهذا يشكل تهديداً وجودياً وإعاقة كبيرة أمام صناعة مشروع الهوية الإنسانية والقيمة والمكانة والاعتبار الوجودي[19] .

إن التسلط والإعتداء على حرية الإنسان وهدرها واستباحتها ، يؤديان إلى وقوع الإنسان وإحساسه في الدونية كقدر مفروض ، ممَّا يجعل الإنسان يعيش في عالم بلا رحمة أو تكافؤ ، فبدل قيام علاقة (أنا - أنت) التي تتضمن العدالة والمساواة وتحقق الاعتراف المتبادل بإنسانيتنا وإنسانية الآخر ، تقوم علاقة (أنا - ذاك) ذاك هو الشيء ، هو الكائن الذي لا يُعترف بهويته وكيانه وصيرورته وإنسانيته وقيمته ، إنّما يعامل بوصفه شيئاً ، يصبح كلُّ ما يتصل به أو يمت له بصلة مباحاً (غبن ، إعتداء ، تسلط ، إستغلال ، قتل) ذلك هو بكل تجلياته الإنسان المقهور[20] .

يعيش الإنسان المقهور والمهدور حالة من الإحتراق النفسي والعجز إزاء الطبيعة وقواها وعوائقها وكذلك قوة السلطة على مختلف أشكالها ، إنّ مشاعر الدونية هي موقفه من الوجود ؛ كون مصيره عرضة لأحداث وتغيرات يطغى عليها طابع الإعتباط احياناً والمجانية احياناً أخرى ، إنّه مفتقر للإحساس بالقوة والقدرة على المجابهة ؛ لأنه يعيش في حالة تهديد دائمة لأمنه ووجوده ، كون الأمور بالنسبة له يسودها إنعدام في التكافوء بين قوته وقوة الظواهر التي يتعامل معها ؛ لذلك فهو دائماً في خانة المغلوب على أمره مفتقراً للطابع الإقتحامي في السلوك ، هذا ما يجعله يتخلّى عن المجابهة مستسلماً ومتجنباً ومنسجماً مع وضعيته الدونية وتهميشه ، ويكون هذا التجنب إمَّا طلباً للسلامة أو خوفاً من سوء العاقبة ، إذ يجعله هذا فاقداً لموقفه من الحياة ، ودوره الفاعل في تغيير المسارات الحياتية منزوياً ومنتظراً ومتلقياً لما قد يحدث ، ثم هناك إنعدام للثقة بالنفس ، جاء نتيجة لعقدة النقص التي تولّد الخوف من السلطة والخوف من قوى الطبيعة والخوف من فقدان القدرة على المجابهة ، الخوف من شرور الآخرين ، إنّه يتجنب كُلَّ ما هو جديد ، الجديد يثير فيه القلق ، والإحساس بانعدام الأمن ؛ إذ إنّ خروجه من دائرة حياته الضيقة ، يشعره بالغربة الشديدة ، وبانحسار الذات ، يريد أن يقف وينحصر في الزاوية التي هو فيها في نوع من الشلل الوجودي ، أكثر ما يعانيه الإنسان المهدور أو المقهور نفسياً هو (الجرح النرجسي) ، إذ يظهر هذا نتيجة تفاعل عقدة النقص والعار واضطراب الديمومة ، ممّا يؤدي إلى إحتراق الإنسان المقهور والمهدور نفسياً وإغراقه في ضعفه وعجزه وإستسلامه إزاء قوى يحس تجاهها بأنه لا يستطيع مجابهتا تتحكم بمصيره الذي لا يملك السيطرة عليه ، ممَّا يجعله منطوياً على ذاته مجتراً مأساته[21] ، وهذا ما نلحظه بصورة واضحة وجلية في مجموعة الخوافي وعلى وجه الخصوص في نص (العاقر) :

أمنِّي الفراشات خيراً
وجاراتي الزائراتُ
يخبِّئنَ لي في الكلام فضولاً
تجاهلتُ ما فيه من قسوة
وانشغلت بسكب الفضاء لأطفالهن
ولو عنفوا المزهريات في غرفتي
سوف أضحك
لكن صوتي بصمتٍ
يصيح :
أنا امرأة من زجاج
تُهشم وردي حصاةُ كلام ...[22]

تبقى العاقر ذاتاً مقهورة لا يمكنها الدخول في إطار الهوية الجماعية الحاكمة لأنها ذات خارج نسق الخصوبة والولادة في منظار الجماعة (الجارات الزائرات) اللواتي يمارسن عليها عمليات الطرد والاقصاء حتى وإن كان هذا من خلال التلميح أو أسئلة الفضول التي يقدمنها للمرأة العاقر ، ممّا يجعلها تعاني من الإحتراق النفسي الداخلي على الرغم من امكاناتها الإنسانية واتجتهادها في الحفاظ على خاصية الأمومة التي في داخلها كما تُبيّنها (وانشغلتُ بسكب الفضاء لأطفالهن) فإنَّها تفتح فضاء البيت وتؤمّنه

للأطفال بكل رحمة ومودّة وعطف إمَّا هن فلم يكن جديرات بتربية ابنائهن وهذا ما يعكسه سلوكيات الأطفال الذين تمدهم (العاقر) بالحرية كي يمرحوا ويلعبوا حتى (ولو عنفوا المزهريات في غرفتي) وخربوا الغرفة بعبثيتهم الطفولية ، إلّا أنَّها لا تلومهم وتدينهم وإنَّما تدين تربية أمهاتهم الولودات اللواتي يمارسن عمليات الانتقاص منها كونها لم تنجب ، وهذا ما يجعلها تصيح (أنا امرأة من زجاج تهشم وردي حصاة كلام) على الرغم من عدم إنجابي لكن هذا لا ينفي قيمتي الإنسانية ومكانتي كما نجده في جملة أخرى :

كصفصافة لا أزال
أهيّئ روحي للإنعكاس
على كل شيء
ولكن
تخثر جسمي
وصرتُ أوزع ظلّي على الكائنات
وأطعم من جاع منها
وكنت أواسي الطيور إذا ما أضاعت طريق السماء
وحطت على كتفي تنوح
أدلك رأس المياه
إذا انتابه ذات يوم صداع
أنام قليلاً
لتصحو في شرفة القلب
وليت أصابع حزني تكفي لعدّ الغيوم
التي عبرت دون إذنٍ
بخصري
تبنيتُ نهراً
وكنتُ أظن إذا ما عطشتُ
سيطرق بابي
ولكن تبخَّر عشقاً
وهاجر عنّي إلى أن تحوّل صدري فخاراً ...[23]

هذه محاولة أخرى لها من أجل الدخول في إطار الهوية الجماعية والإنسجام معها عن طريق اثبات امكاناتها الإنسانية وقدرتها على التعاطف الإنساني الأنثوي ، إذ إنَّها تشبه ذاتها بشجر الصفصاف الذي له القدرة على كسر سموم الرياح الحارة صيفاً والباردة شتاءاً عن طريق الإمتداد للتظليل ومن خلال هذا التمثل تحاول إثبات ذاتها ، إذ تشير إلى قدرتها على مجابهة رياح الأنساق الثقافية الطاردة وعمليات التجفيف الإنساني التي تمارس على الإنسان كونه لا يمتلك ما يؤهله للدخول في دائرة المنظار الجماعي ، حتى أنَّها توزع ظلها على الكائنات وهذا ما تريد اثباته ايضاً إذ تشترك مع الإنسان بمشتركات إنسانية أخرى كالتراحم والتعاطف والإيثار الإنساني ، إلّا أنَّ هذا لا يكفي لدخولها في الاطار الجماعي وتبقى تعيش معاناتها وانكسارها الذاتي حتى النهر (الامكانات الذاتية) الذي تبنته لم يسعفها وقت العطش الذي مارسته عليها الثقافة الجماعية وقد غادرها وتبخّر ولم يصمد أمام تيار المجتمع الجارف وتحول صدرها إلى فخار خالٍ من عذوبة الأنوثة التي تحملها نتيجة لإحتراقها النفسي والقهر الإنساني الذي تعيشه .

ونجد في نص (أسماك الزينة) الذي يصور الحياة الإنسانية بطريقة درامية شبيهة بحوض السمك :

في حوض أصغر من حلم
يحضن نهراً
كي لا تشعر بالغربة فيه
الأسماك[24]

يمثل فيه النهر رمزاً منفتحاً على دلالات عدة حتى وإن كان وهمياً فإنَّه يقف بالضد من الاغتراب الحياتي الذي يعيشه الإنسان وكذلك ضد جفاف الأنساق الثقافية وسطوتها وسياساتها التي تحصره في الحوض / الحياة ، فإنّه يمده بالعيش والمرونة والخصوبة والألفة الإنسانية الذي يبتغيها الفرد والتي تبتعد عن صلابة السلطة المتحكمة بمصيره والتي يمكن تمثيلها في النص :

يكسر أطفالٌ ـ في عبثٍ ـ
هذا الحوض
وتقفز للخارج أسماك الزينة في قلق
وتعيش الموت[25]

تظهر عبثية الهيمنة الاستبدادية التي تمارسها الأنساق الثقافية بوضوح والتي تكسر روح الحياة وصورتها داخل الإنسان ويحاول هذا الأخير الهروب من إحتراقه النفسي وحالات إنكساره الذاتي والقلق الوجودي المتأتي من عمليات السلبنة والهدر الهووي فاراً نحو الخارج / أطار الحوض / خارج النسق إلّا أنَّه مهما حاول سيجرفه التيار النسقي ويقذفه في الهدري الهووي وقهريته يعيش من خلاله المرارة الوجودية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، فإنه سيواجه صدمة أخرى ومحاكمة غير عادلة كما في النص :

الأطفال يفرون لداخلهم
والأمُّ تلملم
ما يجرح إحساس السجاد
ويخنق أنفاس البيت[26]

حتى في محاولة كسر الأنساق العبثية وتقييدها وحصرها في دائرة ضيقة تأتي الأم / الأنساق الثقافية الأكبر تتسع عن طريقها دائرة الهيمنة والسلطة حتى أنَّها لا تبالي بالذوات المهدورة وقيمتها ومكانتها وكرامتها ووقوفها على حافة الموت ، وتنشغل بالسجاد والبيت الذي يشكل رمزاً مادياً وأقل قيمة من الإنسان نفسه ، ويصل النص إلى التصريح وإعلان نهاية الإنسان :

هل هذي الدنيا حوضٌ
وصبي الأقدار يواصل رمي حجارته كي يُكْسَر ؟ !
أسماك الزينة كم تشبهنا
كانت تتعثر بالأرض
وتبحث عن مأوىً ،
لا أكثر[27]

نجد الإنسان يعيش حالة من القهر والهدر بمختلف المستويات على الرغم من محاولاته واجتهاداته التي يبحث فيها عن تحقيق هويته الفردية ومكانته وقيمته الوجودية ، إلّا أنَّ محاولاته تذهب في مهب ريح الأنساق الثقافية العاتية بعد أن يكسر صبي الأقدار بحجارته ذات الإنسان وحياته وقيمته ومكانته جاعلاً منه كائناً لا قيمة له ولا مكانة ، حيث يتجسد هذا المعنى بحذافيره في نص (حذاء أصيب بالعمى) :

أنا ذلك المنسيُّ
حين
يصيبني عطب
وتجرحني الدروب
في كف روحي
كم تسلَّقت الطحالب
مثل وهم عالق
في رأس جنديٍّ
تمزقه الحروب
جسدي يحب الأنتماء لكل شيء :
للتراب وحزنه
للسير عكس الريح

أو لتسلق الذكرى على أمل[28]

بعد عمليات الاستلاب التي تمارس على الإنسان والهدر الهووي الذي يعيشه يدخل في حالة من القهرية يحترق عن طريقها نفسياً ويصيبه اضطراب في عمقه الذاتي وصيرورته الإنسانية على جميع المستويات الحياتية ممَّا يجعله يشعر بعدم أهميته ونسيان كل امكاناته وانسانيته وجهوده الذي قدمها في خدمة الحياة والآخر على السواء (أنا ذلك المنسي حين يصيبني عطب) فإنَّ كل امكاناته يمكن نسيانها لخلل واحد فقط في عمليات اشتغاله في خدمة الهوية الجماعية حتى أنه يصرح بتعبه (في كف روحي كم تسلقت الطحالب) هذا دلالة على بقائه الطويل في خدمة الأنساق الثقافية ، ويكشف ايضاً عن أمكاناته الإنسانية وحب الانتماء للهوية الجماعية وتمسكه بها (جسدي يحب الانتماء لكل شيء : للتراب وحزنه) ويزيد على ذلك :

أنا ضحكة الأقدام
رائحة الطريق
مسافة كانت تجيد حراسة المعنى
وبعض ثماره
لكنني
وحدي
سأبقى
في مخيلة الخزانة
تائهاً
وتظل تسكنني الدروب[29]

إلّا أنه يبقى منبوذاً ومطروداً خارج الهوية الجماعية حبيس ذاته ومخيلته مجتراً مأساته يعيش حالة من القهر الإنساني والإحتراق النفسي كونه لا يمكن قبوله داخل الهوية الجماعية والاعتراف بامكاناته الإنسانية التي عن طريقها يحقق هويته الفردية وقيمته ومكانته الوجودية .

نجد الهدر والقهر الذي يعيشه الإنسان في نص (توأم سيامي) كونه لم يكن مناسباً لاطار الهوية الجماعية البيولوجي ممَّا جعله يعاني حالة من الوحدة والاغتراب النفسي على الرغم من محاولاته في الدخول والامتزاج في الجماعة :

معاً لا نزال وحيدين
نثقب أذن الحياة ونورثها
قرط نايٍ
ونطرق باب المجاز
لكي نتفقد في آخر الحزن
طفلاً برأسين كان ينام
على تخته دون أي غطاء[30]

نجد الإنسان هنا يميط اللثام عن معاناته المتأتية من الوحدة والعزلة التي يعيش فيها كونه غريباً لا يرتقي لتركيبة الإنسان البيولوجية وتصميمه الشكلي ممَّا يجعله أقل منزلة وقيمة ومكانة في منظار الثقافة الجمعية وهذا بدوره يؤدي إلى إقصائه وحصره في خانة التهميش والدونية ممَّا يولد داخله احتراقا نفسياً يدفعه للمحاولة المستمرة في إظهار امكانياته الإنسانية الأخرى التي يمتلكها والتي يمكن أن تؤهله للدخول والامتزاج مع الآخر وسد عقدة النقص التي يعانيها والتي حصرته فيها الأنساق الثقافة وطردته خارج دائرتها ، إذ يقول :

وتضحك من نفسها لو رأتنا المرايا
نعاني من الإلتصاق
لها
ثم للآخرين وراء المرايا نقول
كلانا تمنى

بأن نورث الليل
حلمين منفصلين
ونحفر تحت شجيرة صفصافة
ثم ندفن ألعابنا
بقبرين مختلفين[31]

يقدم صورة واضحة لمعاناته وعقدة النقص التي يعيشها والمتأتية من شكله الملتصق أمام عمليات الطرد والتحقير والازدراء التي تمارسه عليه الثقافة الجماعية إذ (تضحك من نفسها لو رأتنا المرايا ، نعاني من الإلتصاق) عمليات السخرية والتنمر والازدراء التي يواجهها تجعله يحترق نفسيا كون شكله لا يتلائم مع الشكل الجماعي لهذا يحاول ان يبين شعوره أنه يتمنى أن يكون منفصلاً ومثل أشكال الآخرين كي يتخلص من هذا الاحتراق الداخلي الذي يعيشه ويمحو معاناته والصورة التي ينظر بها الآخر له ، حتى أنه يتسائل بصورة واضحة جداً لفرط ما يعيشه من معاناة :

ليبقى السؤال :
لماذا خلقنا بعيدين عن هيئة تشبه الآخرين ؟
ولكننا لو نظرنا إلى قاع أرواحهم
سوف نبصرهم من شقوق الجدار
يوارون توأمهم خلف ظهر عقائدهم
أو طبائع تطفو على سطح نهر[32]

تدفعه معاناته للكشف عن الثقافة الجماعية وما الآخر إلّا توأم سيامي بصورة أخرى وأن توأمه يتوارى خلف ستار الأنساق الثقافية التي تحركه وتتحكم به ولا يستطيع ان يظهره حتى لا ينفى ويبعد عن اطار الهوية الجمعية ممَّا يدفعه لخدمة ثقافتها وانساقها الاستبدادية عن طريق تزييف حقيقته والابتعاد عن ذاته العميقة وهنا يتحول الإنسان إلى لعبة تتحكم به الثقافة الجماعية ((وأي لعبة ترانا نحن بداخلها ؟ نحن داخل لعب عديدة ، ملعوب بنا ، نحن ألعوبة ، لكننا في الوقت نفسه لاعبون . فكل حياة بشرية لاعبة وملعوب بها في الوقت نفسه ؛ وكل فرد هو دمية محركة من السابق ، ومن الداخل والخارج لكنه في الوقت نفسه كائن يؤكد ذاته من خلال صفته كذات))[33] ، وهذا ما نجده في نص (الرمل) أيضاً :

لقد كنتُ حراً
وأجهل كيف وأين
أسافر
ترفرف أجنحتي
فوق آثار من يعبرون
فتنسل خيطاً فخيطاً
ومن ظلِّها لا أحاذر
أنا نمش بعثرتني الحياة على وجنة الأرض
لكنهم زوجوني قبل البلوغ
بقارورة من زجاج
وقالوا : تعلم بها كيف تحصي
تقاطعَ كل المصائر[34]

إنَّ الإنسان ـ وكما هو معروف ـ بطبيعته يولد حراً ، إلّا أنَّ الآخر / الجماعة وأنساقها تحوله إلى عبد يخدم تقاليدها واعرافها وسياساتها واحكامها وقوانينها ولا يمكنه الخروج عنها لأنَّه سيواجه قوة استبدادية مادية أو معنوية لا يستطيع الصمود أمامها ، وهذا ما يجعله مهدور الهوية يعيش القهر الإنساني الذي يدفعه إلى الإحتراق النفسي لأنَّه وعلى الرغم من الامكانات الإنسانية التي يقدمها لا يستطيع من خلالها تحقيق هويته الفردية ومكانته وقيمته الإنسانية ، لأنَّ متطلبات الهوية الجماعية وأنساقها الثقافية تفوق قدرته الإنسانية ، وهذا ما يشعره أيضاً بنوع من العبودية فأنه مستعبداً وموظفاً في خدمة الآخر / الجماعة التي تستنزف طاقته الإنسانية وتستبيح ذاته وتسلب حريته وتهدر مكانته وقيمته الفردية وتقهره.

المبحث الثاني / التقمص أو التوحد والإسقاط

يحاول الفرد وهو في حالة الإحتراق النفسي أن يفتح نافذة للتنفيس عن معاناته التي يعيشها ويزيل عن كاهله الضغط الخارجي وحالات التهميش والاقصاء والاستلاب والهدر والقهر عن طريق الميكانيزمات الدفاعية والحيل النفسية الواعية وغير الواعية ومن هذه الحيل التي يتخذها أو تتشكل سلوكياته على صورتها الإسقاط الذي ((يدل على العملية التي ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصفات ، والمشاعر ، والرغبات ، وحتى بعض الموضوعات التي يتنكر لها أو يرفضها في نفسه كي يموضوعها في الآخر ، سواء أكان هذا الآخر شخصاً أم شيئاً ، نحن هنا بصدد دفاع ذي أصل أثري جداً))[35] ، وهذا ما يجعل الإسقاط ((حيلة أو عملية تلجأ إليها النفس البشرية في حلها للصراع الدائر في الشخصية حول دافع نفسي معين بأنَّ تتخلص من الدافع فترميه ، أي تسقطه على شخص خارجي أو أي شيء خارجي وبهذا ترى الشخصية في ذاك الشخص أو هذا الشيء الخارجي ، دوافعها هي واتجاهاتها هي وخصائصها هي دون أن تفطن إلى أنَّها دوافعها الخاصة أو اتجاهاتها وميولها وخصائصها الذاتية))[36] ، وذهب بعضهم إلى أنَّ الاسقاط ((هو تفسير الاوضاع والمواقف والاحداث بتسليط خبراتنا ومشاعرنا عليها والنظر إليها من خلال عملية إنعكاس لما يدور في داخل نفوسنا . وفي مفهوم علماء التحليل النفسي يعتبر الإسقاط بمثابة حيلة نفسية يلجأ إليها الشخص كوسيلة للدفاع عن نفسه ضد مشاعر غير سارة في داخله ، مثل الشعور بالذنب أو الشعور بالنقص ، فيعمد على غير وعي منه إلى أن ينسب للآخرين أفكاراً ومشاعر وأفعال حياله ، ثم يقوم من خلالها بتبرير نفسه أمام ناظريه))[37] .

إمَّا التقمص فيعني أيضاً ((حيلة من حيل التوافق تتم على مستوى لا شعوري ، ولكي نفهم المقصود بعملية التوحد يحسن بنا أن نعرف المقصود بعملية المحاكاة أو التقليد . ففي هذه العملية الأخيرة يقوم الشخص بوعي وبقصد بتقليد ومحاكاة شخص آخر في حركاته وسكناته ، وعملية المحاكاة هذه عملية مؤقتة بحيث يعود المقلد أو المحاكي إلى شخصيته العادية بعد انتهاء عملية المحاكاة أو التقليد . تماماً كما يقوم الممثل الذي يقوم بتمثيل دور شخصية معينة في رواية معينة فيقلدها في حركاتها وتصرفاتها وعاداتها طوال إعتلائه خشبة المسرح ، حتى إذا ما انتهى من تمثيل دور روايته عاد الممثل سيرته العادية ، وفي موسم مسرحي آخر يمثل شخصية أخرى ، ربما تكون مناقضة للشخصية التي كان يمثلها في الموسم السابق ... وهكذا فالممثل أو المقلد يضع نفسه بشكل شعوري وضعاً مؤقتاً مكان الشخصية التي يمثلها أو يقلدها))[38] أما التوحد فأنّه ((عملية تلجأ إليها النفس البشرية بشكل لا شعوري ودون أن يعي الفرد أنَّه يقوم بعملية توحد . وفي هذه الحالة يمثل الفرد ويستدمج داخل ذاته دوافع واتجاهات وسمات ... شخص آخر بحيث تصبح دوافع واتجاهات وسمات أصيلة في الفرد تضرب جذورها في أعماق بنائه النفسي وهكذا فإنَّ التغيّر الذي يحدث في الفرد أو في شخصيته كنتيجة لعملية التوحد التي يقوم بها لا يكون مؤقتاً ولا مفتعلاً كالذي يحدث في موقف التمثيل أو المحاكاة أو التقليد بل يكون عميقاً في تأثيره في الشخصية ومستمراً إلى حد بعيد ...))[39] ، ويطلق عليه بعضهم التقمص الوجداني ويعني ((الاندماج الوجداني أو المشاركة الوجدانية . يشير في ميدان التحليل النفسي إلى حالة معينة حيث يدمج المرء نفسه بشخص سواء أو جماعة أخرى . فالتقمص حالة عقلية تخص سواه بحيث يصبح مشاركاً له في المشاعر والاحاسيس ذاتها ، وكأنَّه قد صار ذلك الشخص بالذات))[40] .

ونجد عملية الإسقاط في نص (المشافهات) :

على ساق عمري النحيل
وقفتُ طويلاً
أفاوض من ينصبون الشراك لصيدي
أنا لستُ صالحةً للنعاس على صخر أجسادكم
وارتداء المذاق
وتزيين أقفاصكم في البيوت
بتغريدة ليس تنسى
أنا أبنة ماء
نزلتُ لأعرف أخبار كل المياه

وطرتُ إلى الغيم مملوءة بالحياة
أعيش على شكل أغنية
لا تعيش بمفردها
دون من يحفظون الغناء[41]

يحاول الإفلات من الضاغط الخارجي عن طريق عملية إسقاط مايعيشه على طائر الفلامنكو (على ساق عمري النحيل وقفتُ طويلاً) فإنه يرى حياته المهدورة وقيمته ومكانته التي لم يحقق من خلالها هويته الفردية نحيلة وضعيفة حتى أن مفاوضاته مع شراك الأنساق الثقافية الطاردة له وعمليات الإقصاء والتهميش التي تمارس عليه لتقوية هويته الإنسانية لم تنجح وأنه لم يكن صالحاً للإندماج مع صلابة اطار الهوية الجماعية ويصرح أيضاً أنه لم يولد مثلهم وله اختلافه وخصوصيته (أنا أبنة ماء) وهذه المرونة هي التي تميزه وتبعده عن صلابة الهوية الجماعية وهي نفسها التي جعلته مركوناً تحت سقف الإحتراق النفسي . وتستمر عمليات الإسقاط وتظهر في نص (نوستالجيا الملابس المستعملة) إذ يقول :

أنا لا أحب ملابس البالات
لكني أقتنيت الآن منها
ما يثير شهيتي
بتتبع الذكرى التي علقت عليها
من حياة الآخرين
لا شيء يرحل كاملاً
هذا قميص قادني لأرى ظلال تشاجر
كم أقلقت أزراره
وهناك فستان رشيق في زوايا روحه
أخفى مواعيداً من الحب الذي قد شع في هذا المكان
هذي الملابس
ها هنا
تتناسخ الأجساد ، والأيدي عليها
دائماً
وتعيش آلاف التجارب ، والمشاعر
مثلنا[42]

يكشف هنا أنَّه لا يحب ملابس البالات لكنه يقتنيها لغاية ذاتية واسقاطاته عليها ، فإنَّ ما يعيشه من إحتراق نفسي نتيجة لتفاقم الضاغط الخارجي / عمليات الهدر والقهر جعله يرجع بالذاكرة من خلال ملابس البالة لحالات التشاجر مع الآخر التي خلخلت ثوابت هويته الفردية وحدودها وأقلقت أبوابها / الأزرار ، حتى أنَّه ذهب أيضاً لمواقف الحب التي غيّبتها عمليات الاقصاء والتهميش ، وهذه الملابس هيكل الهوية الخارجي الذي تناسخت عليه الذوات الداخلية وتغيراتها وكذلك الأيدي / عمليات الاستلاب والهدر والقهر التي مرت على هيكل الهوية الفردية وجعلته بالياً رثاً بعد ما كان مضيئاً بالحب والمشاعر والاحاسيس الإنسانية التي يحقق الفرد عن طريقها الهوية الفردية وقيمته ومكانته الوجودية .

ونجد حيلة الاسقاط بصورة واضحة في نص (عزلة الدانتيل / من يوميات نبتة الصبار) إذ يقول :

ماذا سأفعل
حين أبعد عن جهاتٍ كنتُ فيها شامة في خدِّ صحراءٍ
تؤرِّقُ رملها ؟ !
والآن في روحي بكاء نوافذٍ
سأزيحُ عن صدري ستائر
حزنها
كيما أصالح أهلها
هم فصلوا جسدي على أُصُصٍ تضيق بفكرتي

هم شبَّهوا حضني بقسوتهم
وما عقدوا صداقتهم معي
إلّا لأغدوَ نبتة الظل التي تمتص وحشة غرفة
لم يستطع قمرٌ صغيرٌ
أن يُبدِّد كحلها
أنا نبتة الصبار
أنصت للأغاني داخلي
وأحوك خلف مواقد الإحساس
كنزة ذكريات
لم يعد معنى لها
أعددتُ للعمر البخيل مواسماً
وخلعت تاج الشوك عن جسدي
لأُنجبَ زهرةً من رقَّة الدَّانتيل
تصعد ثم تذبل في هدوء غامضٍ ،
في الصيف حين تعرَّقت
فاحت حكاياتٌ
سأتبع ظلَّها
أخفي دموع الكبرياء
أمدُّ ظلِّي واقفاً
وفمي انتظار دائمٌ
لو غيمة عبرت يقول : لعلها ![43]

يشير هنا عن طريق اسقاطاته على نبتة الصبار لعمليات الاقصاء والتهميش والهدر والقهر التي تعرض لها والتي انتهكت حريته وابعدته عن قيمته ومكانته إذ كان (شامة في خد صحراء) حراً طليقاً إلّا أن الأنساق الثقافية أبعدته وشكلّت هويته على مقاساتها وسياساتها التي تتبعها (هم فصلوا جسدي على أُصُصٍ تضيق بفكرتي) و (شبهوا حضني بقسوتهم) وهذا ما تريده بالضبط الهوية الجماعية واستراتيجياتها التي تتبعها تجاه الهوية الفردية وهذا ما يجعل الإنسان يركن لذاته الداخلية وينصت للأغاني داخله ويحوك خلف مواقد الإحساس / إحتراقه النفسي الذي يعيشه (كنزة ذكريات لا معنى لها) أمام عمليات الانتهاك والضغط الخارجي التي تمارسه عليه الانساق الثقافية وسياساتها الصلبة ولشدتها وقوتها تجعله ينتظر التغيير الخارجي ويمني نفسه بكل غيمة تمرُّ لأنه مهدور القيمة والمكانة الإنسانية لا يملك القوة الكافية للمواجهة والوقوف بوجه تيار الهوية الجماعية . إمّا حالات التقمص والتوحد فنجدها بصورتها الواضحة في نص (البارون ساكن الأشجار) إذ يقول فيه :

أعيش انتظار المطر
كآنية من زجاج
تحطمها الأرض عند الوصول
تمر الفصول
تواعد عاشقها قرب أول أغنية
ثم تُصغي لأجساد من يعبرون كثيراً
وحدي أتابعها
مثلما تنسج العاشقات السَّهر
بعيداً
عن الأرض أبصرتُ أكثر
أردتُ الكلام تحوَّلَ صوتي
عصافيرَ تخرج مثل الزفير وتُمنَعُ من أن تحطَّ على أي غصنٍ

لتلقطَ أنفاسها
من جبين السماء
ملامح وجهي
فواكهُ ذابلةْ
غير أنّيَ ما زلتُ أحمل حلمي
على كتفيَّ
ومثل السناجبِ
أبحثُ عن أيّ شيءٍ
لأقضمه ثم ألتفتُ حول الغصون ،
فأقطع خيطَ الأثر
تمر الفصول
فأسقط في حِضنها
ورقاً راقصاً
في الهواء
تحرَّرتُ من أي جذرٍ يطوّقني
كي أعودَ لأصلي تراباً
يعاند كل الصور .(44)

يحاول الإنسان عن طريق حيلة التقمص الكشف عن معاناته واحتراقه النفسي الذي يعيشه نتيجة لعمليات الهدر والقهر التي تمارس عليه فيأخذ دور البارون كي يدخل في اطار الهوية الجماعية ويرتفع عن الهامش الذي يقبع فيه إلّا أنَّه (كآنية من زجاج تحطمها الأرض عند الوصول) لذا يبقى عالقاً ينظر من الأعلى دون الوصول لغايته ومبتغاه في تحقيق هويته الفردية وقيمته ومكانته والتخلص من الهدر والقهر على الرغم من أنَّه يوضح (بعيداً أبصرتُ أكثر) إلّا أنه حينما أراد الكلام والتعبير عن هويته الإنسانية تحول صوته إلى (عصافير تخرج مثل الزفير وتُمنَع من أن تحطَّ على أيّ غصنٍ) كلام غير مرغوب به وصوت لا يلائم اطار الانساق الثقافية الحاكمة والمتحكمة بمصير الإنسان وهذا ما يجعله قابعاً في هامشيته وهدره وقهره يعيش الإحتراق النفسي بصورة ذابلة حاملاً حلمه / الهوية الفردية والقيمة والمكانة الإنسانية على كتفه دون أن يكترث أحد له ويأبه به فصل من الفصول لذا يسقط في الهواء / فضاء ذاته الداخلي ورقاً راقصاً متحرراً من انماط الهوية الجماعية وانساقها وعاداتها وتقاليدها وسياساتها التي تهدر هويته وقيمته ومكانته معانداً كل الصور التي تنمطه بها الانساق الثقافية .

وفي نص آخر (روح / استغاثة غير مسموعة لجنين يدافع عن حقه في الحياة) نجد حالة التقمص واضحة :

الريح تُشبهني كثيراً
فهي أختي في الرّضَاعةِ
كم تقاسمنا من العطش الطويل ولم نزل
لكنني قد خنتها
وحلمتُ أن يُلقي تحيَّته عليَّ
مخاضُ
أنا صورة الله التي لم تكتمل ،
تزدادُ في جسدي الثقوبُ ،
إسفنجةٌ لو يعصروني
سوف أقطر شهقةً
هم أفسدوا الطين النديَّ
وأنكروا !
من أين ابتدئُ الحنين

كم كنتُ أضغط في ارتباك كي أوسعَ
للهواء
وكنتُ أسمع صوتَ أمِّي راجفاً
فنزلتُ حزناً هامداً
هذا أنا
وقميص روحي لا يزال مُعلَّقاً
يحتاج طيناً أسمرا
كي يرتديه إذا حلمتُ بأن أرى ،
وأجرّبَ الضحك البريء
أطارد الكلمات ،
أنتفَ ريشها
وأعيش مثل الآخرين
ولادة لا تنتهي ،
وأموت
دون إرادة من عندهم
ويكون لي ظلٌّ يُصلِّي خاشعاً
ليستْ تُحرِّفُ طهرَهُ الأغراض
لا تقطفوا الرُّمان قبل أوانه ودعوه ينعسُ في هدوءٍ
داخلي
واسقوا غصوني من عصافير الحنين
لكي تغادر قلبي الأمراض
لا تتركوا أمِّي وقد ركضت لتلقي نفسها فوق السرير
بحسرةٍ
من بعدما عرفت بأنِّي قرب ساحل روحها
أُرمى حطام سفينةٍ
وخلاصي الإجهاض ![45]

يشير عن طريق حيلة التقمص بصورة درامية إلى حالة الحرية التي طبع عليها الإنسان قبل أن تسيطر عليه الأنساق الثقافية وسياساتها واستراتيجياتها القمعية ويشبه نفسه بالريح إلّا أنَّه يخونها ويفلت من حريته طمعاً بولادة جديدة تكون أكثر إمتزاجاً بالآخر والهوية الجماعية التي تقف حاجزاً صلباً أمام ما يرنو إليه مما تزيده ثقوباً وقهراً وإحتراقاً داخلياً حتى يصير (إسفنجة لو يعصروني سوف أقطر شهقة) على حد تعبيره ، و (هم افسدوا الطين الندي وانكروا من اين ابتدئ الحنين) وهذه اشارة إلى عمليات الاستلاب والتشوه والإنكار لهويته الفردية التي تمارسه عليه الثقافة الجماعية ممَّا يدفعه للضغط كي يوسع للهواء دون جدوى فينزل حزناً هامداً ويبقى معلقاً في فضاء احتراقه النفسي لا يسعفه شيء كي يجرب الضحك ويطارد الكلمات ويعيش مثل الآخرين ويشترك معهم في ثنائية الموت والولادة على الأقل بعيداً عن تحكم الآخر ويكون له ظلٌّ لا تحرفه الأغراض ولا تعبث بمصيره وإرادته وحريته وهويته الفردية ، حتى أنه يصرخ (لا تقطفوا الرمان قبل أوانه ودعوه ينعس بهدوء داخلي) إشارة إلى الدفاع عن هويته الفردية وحريته ومكانته وقيمته الإنسانية ويطالبهم بأن يسقوا غصونه كي تغادر قلبه الأمراض والتشوهات التي اصابته نتيجة الانساق الثقافية واطرها المغلقة ، لا تتركوا أمي / هويته الفردية التي جاءها المخاض ان تجهضني لأنها تعرف حقيقتي وأنَّني لا يمكن أن أشهد ولادة طبيعية وآمنة أكون فيها ابناً لهويتي الفردية وصورة مختلفة ومميزة دون تشوهات ، يعيش في بيئة سليمة خالية من عمليات السيطرة والاقصاء والتهميش والازدراء والهدر والقهر والانتهاك والاحتراق النفسي .

وتظهر حيلة التقمص في نص (الماتادور) إذ يقول فيه :

وحدي

ورثتُ من الرياح عنادها
فأنا سليل مصارعي الثيران
يُلهبُ ما حملتُ من الطباع
ضجيج جمهورٍ
بطقسي يفرح
وتقاطعت كل الوجوه على بحيرة شهوتي
في صورة مقلوبة
فيها رأيتُ بأنني ابنٌ للخريف
اسمان لي : موتٌ وبعثٌ
في امتزاجهما الخلاص سيُلمحُ
فيها رأيت الثور توأمَ صورة لطفولةٍ
عصبوا عيون خيالها
حتى تعيش بواقع
ما عاد يحرث أرض أمنية
ورأيتُ جمهوراً تحلّق داخلي
فإذا انتهى العرض
انتبهتُ ،
على صدى الصرخات ، والتصفيق
أمشي
لا إلى جهةٍ
افرغتُني من شهوة التفاح
ثمَّ
قفزتُ من أعلى سياج للحنين
ركضتُ
أبحث عن ملاذٍ آمنٍ
في لعبة
الكل فيها خاسرٌ
إلَّا الهباء
فإنَّه من يربح .(46)

يكشف الإنسان عن طريق حيلة التقمص الصراع بينه وبين سيطرة الأنساق الثقافية وسلطتها التي يمارسها الآخر تجاه الهوية الفردية في محاولة منه لطمسها وإبعاده كونها تتنطع لحالة من الحرية والخروج عن اطار الهوية الجماعية وهذا ما يبيّنه ويلح عليه في قوله (ورثت من الرياح عنادها) ويرمز للآخر بالثور لقوته وسلطته وانساقه الثقافية ويأخذ الإنسان في هذا الصراع دور الماتادور (فأنا سليل مصارعي الثيران) وتبدأ هذه المواجهة بين الإنسان وبين الأنساق الثقافية وسياساتها واستراتيجياتها القمعية وسطوتها التي تهدر الهوية الفردية وتطمسها وتقهرها أمام (ضجيج جمهور) يصفق فقط لما يشاهده من صراع أمامه دون ان يتدخل وينقذ الإنسان وينتصر له وأحياناً يتواطأ مع السلطة فهو داخل اطار الهوية الجماعية ويقف بالضد من الإنسان كونه مختلفاً و(ابن للخريف) ويبين ايضاً أن هذا الثور هو صورة الطفولة التي عصبوا عيونها كي لا ترى وادخلوها في معامل التنميط الإنساني كي تخدم الانساق الثقافية والهوية الجماعية ويعيش بواقع (ما عاد يحرث أرض أمنية) وبعد ان ينتهي هذا الصراع يعود الإنسان وحيداً (أمشي إلى لا جهة) متجرداً من عمليات الاستنساخ الهووي (وافرغتُني من شهوة التفاح) باحثاً (عن ملاذٍ آمن في لعبة الكل فيها خاسر) دون جدوى ويبقى حبيس ذاته وعزلته ووحدته يحترق داخلياً نتيجة عدم الاعتراف بقيمته ومكانته وهويته الإنسانية وامكانياته التي يمتلكها .

الخاتمة

يمكن إيجاز ما توصل إليه هذا البحث بالآتي :

إنَّ الهوية كانت وما زالت ابنة المجتمع مؤثرة ومتأثرة به وإن الأنساق الثقافية لها دورها الفاعل في تنميط الهويات على اختلاف اصنافها ومستوياتها وإن الآخر يتبع سياسات واستراتيجيات تجاه الهويات الفردية المختلفة عن اطار الهوية الجماعية مثل الاقصاء والتهميش والتنميط والهدر والقهر وهذا ما يجعل الإنسان يعيش حالة من الإحتراق النفسي يعاني عن طريقها الإستنزاف الذاتي وينتج عنه التبلد العاطفي والشعوري الذي يكون الإنسان فيه فاقداً لقيمته الذاتية ومكانته الإنسانية وكل الامكانات التي يقدمها والمجهود الإنساني لا يسد متطلبات الأنساق الثقافية الخارجية ، وكلما ازداد الضاغط الخارجي كلما بحث الإنسان عمَّا يخلصه من معاناته وأسريته وهذا ما دفعه نحو الحيل النفسية أو الميكانيزمات الدفاعية مثل الإسقاط والتقمص للتخفيف من إحتراقه النفسي وعمليات الهدر والقهر التي يعيشها .

هوامش البحث

[1] - يُنظر : الهوية : اليكس مكشيللي : (100 – 101) .
[2] - يُنظر : حدود الهوية القومية : ابن البطار : 268 .
[3] - يُنظر : الهوية : اليكس مكشيللي : 106 .
[4] - يُنظر : الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر : مجموعة مؤلفين : 25 .
[5] - يُنظر : سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء : 106 .
[6] - النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية : أدغار موران : 318 .
[7] - م . ن : (332 – 333) .
[8] - نقلاً عن : علاقات الإحتراق النفسي ببعض الاضطرابات النفسية والنفسجسدية لدى الممرضين : طايبي نعيمة : 15 .
[9] - نقلاً عن : استراتيجيات التعامل coping عند الذين يعانون من الإحتراق النفسي burn out لدى الاطباء المقيمين بالمستشفى الجامعي بوهران : سماني مراد : 16 .
[10] - النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية : أدغار موران : 319 .
[11] - مجتمع الإحتراق النفسي : بيونغ – شون هان : تر : بدر الدين مصطفى : 20 .
[12] - نقلاً عن : علاقة الإختراق النفسي ببعض الاضطرابات النفسية والنفسجسدية لدى الممرضين : 15 .
[13] - النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية : 78 .
[14] - نقلاً عن : علاقة الإحتراق النفسي ببعض الاضطرابات النفسية والنفسجسدية لدى الممرضين : 16 .
[15] - يُنظر : البحث عن الهوية (الهوية وتشتتها في حياة إريك ايريكسون أعماله) : (97 – 110) .
[16] - نقلاً عن : علاقة الإحتراق النفسي ببعض الاضطرابات النفسية والنفسجسدية لدى الممرضين : 17 .
[17] - يُنظر : الأنا : أحمد برقاوي : 39 .
[18] - يُنظر : الإنسان المهدور دراسة تحليلية نفسية اجتماعية : مصطفى حجازي : (27 – 31) .
[19] - يُنظر : م . ن : (241 – 291) .
[20] - يُنظر : التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور : مصطفى حجازي : (39 – 40) .
[21] - يُنظر : التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور : (45 – 50) .
[22] - الخوافي : جراح كريم : 47 .
[23] - الخوافي : (45 – 46) .
[24] - م . ن : 13 .
[25] - الخوافي : 14 .
[26] - م . ن : 14 .

[27] - م . ن : 15 .
[28] - الخوافي : (77 – 78) .
[29] - الخوافي : 79 .
[30] - م . ن : 32 .
[31] - الخوافي : 33 .
[32] - م . ن : (35 – 36) .
[33] - النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية : 334 .
[34] - الخوافي : (27 – 28) .
[35] - معجم مصطلحات التحليل النفسي : جان لابلانش ، ج . ب . بونتاليس : تر : مصطفى حجازي : 70 .
[36] - معجم علم النفس والتحليل النفسي : مجموعة مؤلفين : (50 – 51) .
[37] - موسوعة علم النفس : اسعد رزوق : 40 .
[38] - معجم علم النفس والتحليل النفسي : (155 – 156) .
[39] - معجم علم النفس والتحليل النفسي : مجموعة مؤلفين : 156 .
[40] - موسوعة علم النفس : اسعد رزوق : 82 .
[41] - الخوافي : (9 – 11) .
[42] - الخوافي : (17 – 18) .
[43] - الخوافي : (49 – 52) .
[44] - الخوافي : (21 – 25) .
[45] - الخوافي : (41 – 44) .
[46] - الخوافي : (54 – 57) .

المصادر والمراجع

- إستراتيجيات التعامل coping عند الذين يعانون من الإحتراق النفسي burn out لدى الأطباء المقيمين بالمستشفى الجامعي وهران : سماني مراد ، رسالة ماجستير ، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم علم النفس وعلوم التربية ـــ جامعة وهران ، الجزائر ، 2011 ـــ 2012 م .
- الأنا : أحمد برقاوي ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق ، 2009 م .
- الإنسان المهدور ، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية : د.مصطفى حجازي ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ـــ بيروت ، 2006 م .
- البحث عن الهوية ، وتشتتها في حياة إيريك إيركسون وأعماله : بيتركونسن ، ترجمة ، د.سامر جميل رضوان ، ط1 ، دار الكتاب الجامعي ، العين ـــ الامارات العربية المتحدة ، 2010 م .
- التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور : د.مصطفى حجازي ، ط12 ، المركز الثقافي العربي ـــ بيروت ، 2013 م .
- حدود الهوية القومية : د.نديم البيطار ، دار الوحدة ـــ بيروت ، 1982 م .
- الخوافي : جراح كريم ، مجموعة شعرية ، ط1 ، خطوط وظلال للنشر والتوزيع ـــ الاردن ، 2021 م .
- سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء : د.عبد الغني عماد ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت ، 2017 م .

- علاقة الإحتراق النفسي ببعض الاضطرابات النفسية والنفسجسدية لدى الممرضين : طايبي نعيمة ، إطروحة دكتوراه ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا ، جامعة الجزائر 2 ـــ الجزائر ، 2012 ـــ 2013 م .
- مجتمع الإحتراق النفسي : بيونغ ـــ شول هان ، ترجمة ، بدر الدين مصطفى ، ط1 ، دار معنى للنشر والتوزيع ، 2021 م .
- معجم علم النفس والتحليل النفسي : مجموعة مؤلفين ، ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـــ بيروت ، د . ت .
- معجم مصطلحات التحليل النفسي : جان لابلانش ، ج ـــ ب . بونتاليس ، ترجمة ، د.مصطفى حجازي ، ط3 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـــ بيروت ، 1997 م .
- موسوعة علم النفس : د . اسعد رزوق ، ط3 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـــ بيروت ، 1987 م .
- النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية : أدغار موران ، ترجمة ، د.هناء صبحي ، ط1 ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ـــ أبو ظبي ، 2009 م .
- الهوية : اليكس ميكيشللي ، ترجمة ، علي وطفة ، ط1 ، دار الوسيم للخدمات الطباعية ـــ سوريا ، 1993 م .
- الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر : مجموعة مؤلفين ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت ، 2013 م .